

مفاهيم القرآن

(339) وعندئذ يكون هو المسؤول عن أعماله وأفعاله ، وعلى هذا الأساس فالفعل مستند إلى الله سبحانه باعتباره أن الله أقدر عبده على الفعل وأنعم عليه ، كما أن الله مستند إلى عبده لكونه باختياره صرف القدرة والنعمة في أي مورد شاء ، وهذا هو مذهب الأمر بين الأمرين الذي تواترت عليه الأخبار عن أئمة أهل البيت - عليهم السلام - . مذهب الإمام الأشعري إن هناك مذهبا آخر يعد مقابلا للمذهب الماضي وهو المنسوب إلى الإمام الأشعري ، فهو لا يعترف إلا بمؤثر واحد وهو الله سبحانه وينكر علوية أي موجود سواه ، بل يقول جرت إرادة الله على خلق الحرارة بعد النار وخلق النار بعد الشمس وهذا هو ما أسموه بالعادة الإلهية . فالعادة الإلهية جرت - حسب تلك النظرية - على ظهور الأثر عقيب وجود المؤثر ، دون مشاركة أو سببية للمؤثر في حصول ذلك الأثر مطلقا . ولكن هذه النظرية مرفوضة لمخالفتها الصريحة للبراهين العلمية والفلسفية ولصريح الآيات القرآنية حول تأثير العلة والأسباب الطبيعية في عالم الكون ، ونحن نرجئ بيان بطلان هذا الرأي من الناحية العلمية والفلسفية (1) إلى موضع آخر ، وإننا نكتفي هنا ببيان بطلانه من وجهة نظر القرآن .

1 . نعم هذه النظرية تقارب ما نقل من الفيلسوف الإنجليزي المعروف: هيوم ، حيث إن الله أنكر مطلق العلية ولم يعترف حتى بعلة واحدة ، وعلا ذلك بأن التجربة لا تثبت إلا التوالي والتقارن بين النار وحرارتها والشمس وضوئها ، وهما غير العلوية أي نشوء شيء من شيء . ولكن الله لما حصر أسباب المعرفة بالتجربة والاختبار عجز عن إثبات قانون العلية الذي تبتني عليه المعارف البشرية ، ولو رجع إلى البراهين الفلسفية التي أقامها الفلاسفة على أن كل ظاهرة ممكنة تحتاج إلى سبب يخرجها من نقطة الاستواء لظهر له الحق بأجل مظهره .